الحداثة والتجديد

(إنّ الله لا يمكن ان يعطينا عقولا ،ثم يعطينا شرائع مخالفة لها) ابن رشد

الحداثة والتجديد، مصطلحان حدث ويحدث في فهمهما واستخدامهما الكثير من التداخل وكأنهما مترادفان ، وهو أمر لا يمكن التغاضي عنه بسبب المخرجات الخاطئة والخطيرة المتوقعة عن هذا الاستخدام. حيث أن التباين بينهما واضح وأصيل ولأسباب عديدة والتي من أهمها:

١. الاختلاف التام في اساس الوضع اللغوي (حيث سيبدو ذلك جليا من خلال التعريف اللغوي).
٢. الظهور التاريخي لكل منهما اصطلاحاً. حيث ظهر مصطلح الحداثة وتبلور خلال اواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بينما ظهر التجديد بالمعنى الاصطلاحي منذ اكثر من اربعة عشر قرناً كما في الحديث النبوي المعروف عن رسول الله- (ﷺ): "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها".
٣. المفاهيم والنتائج السلبية التي ينطوي عليها المفهوم والممارسات لمصطلح الحداثة على العكس تماماً من مصطلح التجديد ومافيه من إيجابية واضحة .

الحداثة والتجديد لغةً:

هي مصدر من الفعل " حَدَثَ " ، وتعني نقيض القديم ، والحداثة أول الأمر وابتداؤه ، وهي الشباب وأول العمر.

والتجديد في اللغة العربية من أصل الفعل "تجدد" أي صار جديدًا، جدده أي صيّره جديدًا وكذلك أجدّه واستجده، وكذلك سُمِّي كل شيء لم تأت عليه الأيام جديدًا، ومن خلال هذه المعاني اللغوية يمكن القول: إن التجديد في الأصل معناه اللغوي يبعث في الذهن تصورًا تجتمع فيه ثلاثة معانٍ متصلة:

١. أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجودًا وقائمًا وللناس به عهد.
٢. أن هذا الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديمًا.
٣. أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق.

الحداثة والتجديد اصطلاحاً:

١. الحداثة : ليس هناك تعريف واحد للحداثة، بل ذهب الناقد والأكاديمي عبدالله الغذامي للقول بأن كل حداثي له تعريفه الخاص بالحداثة، ولكن الأمر ليس بهذه الرخاوة، فالعبارات تتعدد ولكن ضمن مزاج متقارب، فمن هذه التعريفات:

- اتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن في المجتمع " .

(الحداثة في الأدب المعاصر ـ هل انفض سامرها ، د . محمد مصطفى هدارة ، مجلة الحرس الوطني ربيع الآخر ١٤١٠ هـ.)

- وعرفها كمال أبو ديب: "الحداثة هي وعي الزمن بوصفه حركة تغيير." أو بعبارة أخرى:" الحداثة انقطاع معرفي (عن التراث) ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث"
- وعرَف الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م) الحداثة (وكانت تسمى في وقته الانوار):" أن يخرج الإنسان من حالة الوصاية التي تتمثل في استخدام فكره دون توجيه من غيره "وأضاف " إن شرط الحداثة هو الحريّة بمعنى أن العقل يجب أن يتحرر من سلطة المقدس ورجال الكهنوت والكنيسة وأصنام العقل". "تستبدل فكرة الله بفكرة العلم، وتقصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد"

٢. التجديد : استخدمت كلمة تجديد بمعنى البعث والإحياء والإعادة .وقد أشارت السنة النبوية لمفهوم التجديد من خلال المعاني السابقة المتصلة ويعتبر حديث التجديد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله- (ﷺ) "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها" رواه أبو داود.

ويعد التجديد مفهومًا مناقضاً لمفهوم التقليد، ويقصد بالتقليد محاكاة الماضي بكل أشكاله وشكلياته، حيث أدى التقليد إلى انفصال بين الوحي والعقل، وكأنهما متضادان لا يمكن الجمع بينهما.

العلاقة بين التجديد والحداثة:

إن التجديد قد يحمل صفات حداثية ، فهو من جهة يؤمن كما الحداثة بوجود حقائق منجزة وثابتة، وقيم إنسانية خالدة، ونصوص تتأبد مع الإنسان، ولكنه يؤمن في نواح أخرى باللاثبات وبنسبية الحقيقة في بعض معانيها، الأمر الذي يتطلّب تجددا مستمرا ولكن وفق مبادئ يقينية ، فالمؤمنون هم الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم" الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه"، ولكن الأعراف والأفضليات المتفاوتة قد تشكل جانبا من النسبية و اللاثبات التي ينبغي احترامها.

كذلك فإن التجديد كما الحداثة غير مقتصر على جانب التشريع بل هو نمط من التفكير الحر القائم على احترام البرهان وعلى الإبداع وسعة المخيلة، والثقة بأن الإنسان قادر عليها، وأنه يسير بتطور في نهج تقدمي يزيد فيه كل جيل على من سبقوه علما وتجربة، بل إنه قد أبطأ طويلا، و تأخر كثيراً عن الدرجة التي يراد منه بلوغها، إلا أن التجديد الديني يظل مهتديا بالنص القرآني وسنة النبي المعصوم (ﷺ) وبالتجارب الإنسانية وبما تبين من مقاصد الشريعة في الفرد والمجتمع، في إطار من القيم الإنسانية الأساسية التي لا يمكن لها أن تتغير وإلا لأصبح الإنسان كائنا آخر، فالتجديد كما الحداثة ينبغي أن يظل طبيعة حياة ومنهج عمل يستحث الإنسان على البحث عما هو أفضل والتخلي عن المفضول، في إطار هدى نص سماوي مرشد لا مقيد، ودون الركون إلى السكون لمجرد أن هذا الذي بين أيدينا هو حكم شرعي، فهناك دائما في دين الله ما هو أحسن إذا ارتقينا للدرجة التي تؤهلنا له (اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم)، والدين في عمومه له غايات عليا ألا وهي الارتقاء بالإنسان نحو معالي الأخلاق وبالعمران نحو الحضارة، وكانت هذه رسالته ولا زالت.

ويشترك التجديد مع الحداثة في الإقرار للزمن بأنه عامل تغيير، وأن مسيرة التاريخ تقدميَّة، وأن العلوم تراكمية، وأنه من الواجب القيام بتطوير الحياة كلها بما ينسجم مع القدرة العلميّة والعمليّة للإنسان، فكلما زدنا علما وجب أن نزداد عملا بذلك العلم وإلا فلن يكون للتطور العلمي معنى عند الناس ولن يعودوا يكترثون به فيموت داعيه فيما بينهم.

ويرتكز مفهوم التجديد في الفكر الغربي على أساسين:

أ- لا تُرى عملية التجديد إلا بمنظور التكيف في إطار من نسبية القيم وغياب العلاقة الواضحة بين الثابت والمتغير؛ إذ تعتبر كل قيمة قابلة للإصابة بالتبدل والتحول، وعلى الإنسان أن يستجيب لهذه التغيرات بما أسمته التكيف، ولم يطرح الفكر الغربي قواعد لعملية التجديد وحدوده وغاياته ومقاصده.

ب- يغلب على مفهوم التجديد في الفكر الغربي عملية التجاوز المستمرة للماضي أو حتى الواقع الراهن؛ من خلال مفهوم الثورة والذي يشير إلى التغيير الجذري والانقلاب في وضعية المجتمع. وتبدو فكرة التجاوز مرتبطة بالفكر الغربي الذي يقوم على نفي وجود مصدر معرفي مستقل عن المصدر المعرفي البشري المبني على الواقع المشاهَد أو المحسوس المادي.

وقد نادى إدغار بأن يكون الأدب كاشفا عن الجمال ، ولا علاقة له بالحق والأخلاق ، وهذا ما انعكس على حياته بشكل عام ، حيث كان موزعا بين القمار والخمر والفشل الدراسي والعلاقات الفاسدة ، ومحاولة الانتحار . وعلى خطا إدغار سار تلميذه بودلير ممعنا في الضلال ومجانبا للحق والفضيلة.

ويعد بودلير مؤسس تيار الحداثة من الناحية الفنية الأدبية ، والذي نادى بالغموض في الأحاسيس والمشاعر ، والفكر والأخلاق ، كما قام المذهب الرمزي الذي أراده على تغيير وظيفة اللغة الوضعية بإيجاد علاقات لغوية جديدة تشير إلى مواضع لم تعهدها من قبل . ويطمح أيضا إلى تغيير وظيفة الحواس عن طريق اللغة الشعرية .

ومما لا جدال فيه أن الحداثة كمذهب أدبي تجديدي قامت في أساسها الأول على الغموض وتغيير اللغة ، والتخلص من الموروث بكل أشكاله ، وأجناسه ، وتجاوزهم للسائد والنمطي. بل والشك بكل يقين كما تساءل إيمانويل كانط "هل حقاً أن العقل لا يملك مسلّمات أولية تولد معه؟ هل حقاً لا توجد حقائق ثابتة وإنما مجرد احتمالات غير يقينية كما ذهب الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م)؟ قد نقول نعم إن النار التي تحرق الأشياء قد لا تحرقها في كوكب آخر، أو أن الشمس قد لا تشرق غداً، ولكن هل يمكن أن يوجد وقت أو زمان تكون فيه ٢+٢ لا تساوي ٤؟"

هذا التساؤل الذي لم يكن سلبياً أوصله ألى نتيجة مفادها " أن العقل ليس أداة سلبيّة تنقش عليها الأحاسيس ما تريد، ولكنه عنصر فاعل يتصرف في الأحاسيس ويُرّتبها وفق أنماط مقصودة لينتج منها أفكاراً تتوصل إلى الحقيقة بقدر دقتها في ضبط هذه الأنماط بعيداً عن مفسدات التفكير، إن الأحاسيس مشّوشة والتجارب غير مُنظّمة، فإذا ما استلمها العقل حَوَّلها إلى وحدة من الفكر المنظم والمرتب، وعليه فقد أعاد كانط للعقل استقلاليته وأثبت وجود المسلمات الفطرية لديه والتي على أساسها ينظم الأحاسيس والتجارب ليتوصل إلى الأفكار.

الخاتمة:

ان مشكلة الفكر التنويري الاوربي والعقلانية الاوربية (الذي نتج عنهما الحداثة) قد قطعت العلاقة مع الماضي والتراث والدين وكل ثابت بشكل نهائي ، فانتقدوا المقدس في الدين مثلما هاجموا المؤسسات الدينية وفي مقدمتها الكنيسة المتحالفة مع الاقطاع الذين استغلوا الانسان باسم الدين ،ووصل الحال ببعض التنويريين الى الالحاد . اما نحن فنختلف مع هذا الموقف تماما في نظرتنا الى الدين والتراث ، فكما قال ابن رشد (إن الله لا يمكن ان يعطينا عقولا ،ثم يعطينا شرائع مخالفة لها) ، ولكن هناك من يتاجر بالدين في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل (فاذا اردت التحكم بالجهل فعليك ان تغلف كل باطل بغلاف ديني).

فالتجديد ايجابية وتواصل وابداع وبعث والحداثة وفق متابعتنا لتطورها منذ جيل المؤسسين في اوربا (كالشاعر الفرنسي شارل بودلير والاديب الفرنسي فلوبير والاديب الروسي مايكوفسكي) وإلى دعاتها في عالمنا العربي (الكاتب السوري علي أحمد سعيد الشهير بأدونيس، والشاعر العراقي عبدالوهاب البياتي والشاعرالمصري صلاح عبدالصبور) عبارة عن سلبية وانقطاع وتمرد وضياع في وسط بحر من الرمال المتحركة .

أ.م.د إسراء مؤيد رشيد التميمي